

بسم الله الرحمن الرحيم

## حال المهاجرين العراقيين في الخارج

أ.د. مضر خليل عمر

عرضت سابقا تساؤلات عن امكانية أن تشكل الجالية العراقية في الخارج مناطق اجتماعية خاصة بها ، وقد حاولني بعض الزملاء في الموضوع و كيفية دراسته والتحقق من الافتراضات و التخمينات و الحدس العلمي ذي الصلة بالمناطق الاجتماعية و سياقات تشكيلها من قبل الجاليات المهاجرة . ساعرض هنا وجهة نظري في الموضوع ، وهي قابلة للمحاججة المنطقية و التحليل العلمي . وسيكون عرض وجهة نظري بصيغة نقاط .

لقد تشكلت المناطق الاجتماعية في مدن اوربا و امريكا نتيجة الهجرة الكبيرة التي حدثت بعد الحرب العالمية الثانية ، بحثا عن عمل و عيش آمن . وقد كان لعملية الاستقطاب الاجتماعي دورا مركزيا في تشكيل هذه المناطق سعيا للتكتل والتوحد امام المشاكل التي واجهها المهاجرون ، وللتعاون لمعالجتها والارتقاء بالمستوى المعيشي و الحضاري للجالية . وقد شكلت بعض المناطق الاجتماعية بيئة منغلقة على نفسها (كيتو) ، وبعضها تسمى باسم الجالية التي تقطنها (مدن الصقليين ، الصينيين ، الباكستانيين ، الهنود ، الافارقة ، وغيرها) . وللعديد من هذه المناطق الاجتماعية نظامها الاجتماعي المحلي الخاص بها ، متميزا عن المجتمعات المحلية الاخرى في المدينة نفسها .

وقد ساهم وكلاء العقارات في هذا التقسيم الاجتماعي ، وقد اطلق عليهم اسم حراس البوابة ، حيث يسهلون سكن او يمنعون انتقال الاشخاص والعوائل من والى هذه المناطق ما لم تكن المنطقة الاخرى للمجموعة نفسها . تعززت تشكيلة هذه المناطق بالقوانين المحلية و انتشار الفقر بين افراد الجاليات ، اضافة الى دور العصابات المحلية و انتشار الجريمة المنظمة في بعض المناطق الاجتماعية . وفي بعض المناطق الاجتماعية تجلت بعضا من سمات حضارة المجتمع الاصلي ونقلت الى المدن الاوربية والامريكية من حيث الملابس والمأكل و ممارسة الشعائر و الطقوس ، و الاحتفال بالمناسبات الوطنية . بعبارة اخرى ، عاش المهاجر في بيئة مناظرة للبيئة الام في مكان اخر لينعم بايجابيات المجتمعين ، ويعاني من سلبياتهما . فالمهاجر قد نقل معه و عرض صورة حية عن مجتمعه الاصلي بايجابياتها وسلبياتها . وعلى الرغم من انه في الغالب ، كان الاستقرار في البلد المضيف هو الهدف النهائي لمعظم المهاجرين ، الا انهم قد حملوا معهم وطنهم حيثما ارتحلوا واستقروا .

ونظرا لطول فترة الهجرة ، والتباين الكبير بين المجتمعات الاصلية و المهاجرة فقد برزت مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية عديدة . وقد كانت المجاميع الاجتماعية متباينة فيما بينها ، وفي داخلها ، من حيث درجة الانفتاح على المجتمع المضيف . وبالمقابل ، تباين مدى تقبل المجتمع المضيف للمهاجرين وسلوكياتهم و معاييرهم الخاصة بهم . فكان الصراع سجالا ، ظاهرا تارة و مخفيا تارة اخرى ، يتاجج امام اتفه الممارسات من قبل افراد المجتمع المضيف ، او مجتمع المهاجرين . كما تباينت السياسات الاجتماعية بين الدول نفسها تجاه المهاجرين ، وبين وحداتها الادارية (الولايات) ، عبر الزمن طبقا لوضع الشارع والازمات الاقتصادية التي تعاني منها الدولة والمدينة .

يضم المجتمع العراقي تشكيلة متنوعة من القوميات والاديان و الطوائف ، وقبل الغزو لم تكن الفروقات بينها واضحة أو حادة لتشكل صراعات داخلية محلية . وقد استغلت هذه التركيبة في عمليات التهجير القسرية ، الجماعية والفردية . فيقصد التجريف السكاني لاغراض سياسية ، هجرت مجاميع معينة مكانيا . وقد سبق ذلك بعقود هجرة جماعية من بعض المناطق الحدودية التي تعتمد على موارد مائية ترد من الخارج ، تلتها حرب الثمان سنوات التي فاقمت الوضع الحدودي سوء مما اضطر الكثيرون للانتقال الى مناطق اخرى داخل العراق .

ولا ننسى الهجرة الواسعة من الريف الى مدن البصرة وبغداد (خاصة) خلال عقدي الخمسينات والستينات من القرن الماضي . فالهجرة ، سواء اكانت قسرية ام طوعية عرفتها بعض المدن الحدودية ، ولكن ما حدث بعد الغزو شمل مدنا ومناطق داخلية وفي مختلف أرجاء العراق . ومعظم هذه الهجرات كانت داخلية اذ تمت ضمن ارض العراق . وكان لبعضها اثارا سلبية على التصميم الاساس للمدن ، كما ادت الى تريف المظهر الحضاري الارضي Cultural Land Scape للعاصمة بغداد و البصرة و مدنا اخرى ، وتكوين مناطق اجتماعية (احياء سكنية) خاصة بالمهاجرين في المدن التي استقروا فيها . ولعل انتشار العشوائيات في معظم مدن العراق خير دليل على عملية اعادة التوزيع الجغرافي للسكان خلال العقود القليلة الماضية .

تختلف هجرة العراقيين الراهنة الى خارج الحدود كثيرا عن هجرة الشعوب الاخرى ، من حيث الكم والنوع والاسباب و الاماكن . يضاف الى ذلك ، الاختلاف الكبير في طبيعة المجتمع العراقي عن مجتمعات جنوب شرق اسيا وافريقيا ، مثلا ، المهاجرة الى تلك البلدان . وبعد ان كانت الهجرة فردية اصبحت جماعية وشبه منظمة ، و منظمة في بعض الاحيان . وتركز المهاجرون خلال عقد التسعينات في سوريا ، وبعد الغزو في الاردن و تركيا و غيرها من البلدان . وقد تميز مهاجروا ما بعد 2003 من حيث التركيبة الديموغرافية . وفي الواقع ، لم يبق بلدا قريبا او بعيدا لا تجد فيه مهاجرين عراقيين . وقد شكل العديد من حملة الشهادات الجامعية العليا جاليات عراقية صغيرة في العديد من مدن الدول المتقدمة ، ولكن ليس مناطق اجتماعية خاصة بهم . فالمناطق الاجتماعية ، تشكلها الطبقة الفقيرة في الغالب ، والتي ترتبط ذاتيا بسياقات اجتماعية – دينية خاصة بها .

بعد هذا التقديم الموجز للهجرة و المناطق الاجتماعية التي تنتجها ، من الجوهري العودة الى السبب الرئيس لعرض المقال : **كيف سندرس الهجرة الراهنة للعراقيين الى الخارج ؟ ومن اي جانب سننظر للموضوع ؟ وماهي الافتراضات التي سنعمد الى التحقق منها ؟ ومن سيتولى مثل هذه المهمة الوطنية - العلمية ؟**

### **كيف سندرس هجرة العراقيين الى الخارج ؟**

دراسة الهجرة تعتمد بدرجة كبيرة على المسح الميداني ، اضافة الى البيانات الرسمية التي توفرها مؤسسات الدولة و منظمات المجتمع المدني وتلك ذات العلاقة بالمجموعة المهاجرة \ المهجرة . ويتطلب المسح الميداني استبيانا وتقصي معلومات وجمع بيانات ذاتية وموضوعية ، تتعلق بالمهاجرين افرادا ومجموعات ، في موطنهم وفي مكان هجرتهم . ولهذه الدراسة والجهة المعنية بها دور اساسي في تحديد مؤشرات الدراسة ومتغيراتها و طريقة التحليل ومستواه . **بعبارة اخرى ، دراسة الهجرة لا تكون موضوعية ومقبولة علميا ما لم تركز على مسح ميداني و بهدف موضوعي حيادي ، و رؤية انسانية .**

## من اي جانب ينظر للموضوع ؟

**الهجرة موضوع متعدد الواجه والايعاد والاثار** ، ودراسته الحقيقية تتطلب تشكيل فريق عمل متعدد التخصصات ، يربط بين المؤشرات المختلفة ، وبين الاسباب والنتائج . والنتائج مزدوجة التأثير ، على البلد المضيف وبلد المصدر ، ومن النواحي المختلفة : ديموغرافيا ، اقتصاديا ، اجتماعيا ، حضاريا ، سياسيا ، اداريا ، امنيا . **جغرافيا** ، هناك **مكانيين تائرا بالهجرة** ، والمكان (الموضع) له علاقاته المتداخلة مع الموقع ، ((القرية ضمن الناحية او القضاء ، والحي السكني ضمن المدينة ، و المدينة ضمن المحافظة )) . اي دراسة التأثير الاجمالي على (الموقع) والتفصيلي على (الموضع) . بعبارة ادق ، **تم اقتطاع عنصر ضمن نظام معين و تهجيرة ليشكل عنصرا جديدا في نظام اخر** . كيف سيعمل النظامان بعد عمليتي القطع والاضافة ؟ **النظرة النظامية** System Approach جوهرية في مثل هذه الدراسات ، لانها **ستربط بين المدخلات والمخرجات** ، وبين الاسباب والنتائج ، و توشر ملامح التغيير الداخلي والخارجي للمكانيين .

للتركيب الديموغرافي للمهاجرين دور كبير في تحديد نوعية التغييرات وطبيعة التأثيرات على النظامين . ومن التغييرات التي يتوقع حدوثها ، تغييرات في الوضع الاقتصادي للمهاجرين و لسكان المنطقة المضيفة . وللجانب الاقتصادي اهمية كبيرة في تحريك النوازح الفردية والجماعية عندما تختلف المصالح و تتعارض ، مما يؤدي الى حدوث مشاكل لا عد لها . وللجانب الاقتصادي اثاره الاجتماعية و النفسية والسياسية ، خاصة عندما يكون هناك تباينا كبيرا بين المجتمعين (الضيف و المضيف) . تنعكس هذه التأثيرات على الجانب المضيف بتغيير مظاهر سطح الارض حضاريا ، ما لم تكن هناك سيطرة تنمية Development Control صارمة تحد من سلوكيات المهاجرين وتجاوزاتهم على نظم البلد المضيف (القانونية ، الادارية ، التخطيطية ، والاجتماعية) . وفي هذه الحالة قد يعاني البعض من المهاجرين من اثار نفسية ، خاصة من لا يستطيع التكيف مع نظم المجتمع المضيف و تقبل سياقات عمله . في بعض الاحيان قد تدفع الحالة النفسية للانحراف والقيام بافعال غير قانونية .

## ماهي الافتراضات التي سنعمد الي التحقق منها ؟

ترتبط فرضيات البحث العلمي باهدافه (المعلنة و المتضمنة) ، و بالمدرسة الفكرية التي توّطر ملامحه و مسعاه . وبما ان الهجرة (والتهجير) متعددة الابعاد والاسباب والنتائج لذا فان المدارس الفكرية ، والسياسية ، تعمل جميعها في صياغة فرضيات دراستها و تحديد الاهداف . **جغرافيا** ، نبحث عن التباين في سمات **المكانيين** ، (في الوطن وفي المهجر) ونسعى الى تفسيره واستقراء ما يمكن ان يكون عليه حال المهاجرين في **المستقبل القريب** و اوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والسياسية . فالمقارنة هنا ضرورية جدا لتحديد **الاثار** وتفسير النتائج الملموسة والمحسوسة . **وهنا ، في التفسير** ، وفي تسليط الضوء على سمات معينة **للمكانيين تتجلى خصائص المدرسة الفكرية للباحث | الباحثين** .

ترد الافتراضات عادة اما بصيغة اسئلة تتطلب البحث عن اجابة لها ، او نصوصا ماخوذة من مصادر و مراجع فكرية او تجريبية بحاجة الى دعم او تنفيذ . ما سيرد هنا ، مجرد افكار وتساؤلات وردت في الذهن ساعة الكتابة . والباب مفتوحا للاضافة والمحااجة لكل من له دراية بموضوع الهجرة والتهجير ، واطلاع على اوضاع الجاليات في الخارج و تشكيل المناطق الحضرية الاجتماعية . **فالافتراضات هي التي تنبعث عنها مؤشرات الدراسة و المتغيرات المعتمدة في التحليل والاستنتاج** ، والتي هي جوهر البحث العلمي و صلب **موضوعه** .

## مجرد تساؤلات ،

- هل تمت الهجرة فردية ام جماعية ؟
- هل هناك حلولاً بديلة عن الهجرة ؟
- هل هي حتمية (قسرية) ام حلاً لمشاكل معينة ؟
- هل تخطط لان تكون هجرة دائمية ؟ ام مؤقتة ؟
- ماهي اسس اختيارك بلد المهجر ؟
- هل هناك بلدان اخرى بديلة للهجرة ؟
- الى اية درجة كانت التصورات \ المعلومات دقيقة عن اوضاع المهاجرين الى هذا البلد ؟
- هل هناك دعم من الاهل للهجرة ؟ مالياً ؟ معنوياً ؟
- هل استمر هذا الدعم بعد الهجرة ؟ وكم المدة ؟
- هل لديك مورد مالي شخصي (تقاعد مثلاً) تستلمه وانت في المهجر ؟
- كيف كان موقف العراقيين منك في المهجر ؟ وكيف كانت مساعداتهم ؟ وكم ؟
- اين كان الاستقرار الاول في المهجر ؟ من حيث نوع السكن و موقعه في المدينة ؟
- هل تبع ذلك الانتقال الى مكان اخر ؟ بسبب الحصول على عمل ؟ او سكن افضل ؟ واين موقعه في المدينة ؟
- ما هي المهن التي امتهنتها في المهجر ؟ بالتتابع لطفاً ....
- كيف عالجت \ تعاملت مع مشكلة اللغة ؟ الاختلاف في النظام ؟ والعادات ؟ والبيئة ؟
- هل تقبلت البيئة الجديدة ؟ أم رفضتها كلياً ؟ ام حاولت اقناع نفسك بالتكيف معها تدريجياً ؟
- كيف كانت استجابات المواطنين لك ؟ وللمهاجرين الاخرين ؟
- هل يسكن العراقيون في اماكن معينة في المدينة ؟ ما طبيعتها ؟ وما موقعها ؟
- في المنطقة التي تسكن بها حالياً ، هل هناك شيء مشترك بين العراقيين ؟ ما هو ؟
- هل هناك عراقيون ينظمون اعمال و مهام و اوضاع المهاجرين في المهجر ؟
- هل تنصح اقرانك بالهجرة ؟ اهلك ؟
- هل تفكر بالعودة الى العراق ؟ مؤقتاً ؟ دائماً ؟
- ماهي ابرز المشاكل التي واجهتها انت عند الهجرة ؟ وكيف عالجتها ؟
- ماهي ابرز المشاكل التي واجهها العراقيون الاخرين ؟ وكيف تمت معالجتها ؟
- ما هي ابرز حالات النصب والاحتيال التي تعرض لها العراقيون في المهجر ؟
- من هي الجهات التي مارست النصب والاحتيال على العراقيين في المهجر ؟
- هل فكرت بالانتقال الى مدينة اخرى لتحسين وضعك ؟ او قمت بذلك فعلاً ؟
- هل يتكفل العراقيون في المهجر على اساس الانتماء الى : المدينة ؟ المحافظة ؟ الطائفة ؟ الدين ؟ ام علاقات المعرفة السابقة ؟
- هل اثرت اوضاع العراق السابقة على بعض المهجرين و حددت سلوكياتهم تجاه الاخرين ؟
- هل تتابع اخبار العراق يومياً ؟ بين فترة واخرى ؟ حسب الاحداث ؟
- هل هناك من يساعد المهجرين \ المهاجرين مالياً عند الحاجة ؟ ومن هم ؟
- هل هناك من يقدم الدعم المعنوي للمهجرين \ المهاجرين عند حدوث مشاكل او صعوبات في الحياة اليومية ؟ ومن هم ؟

- هل تحس انك مرفوع الرأس في الغربية ؟ وما دواعي ذلك ؟
- ماهي اصعب الحالات والظروف التي عشتها في الغربية ؟
- هل تعرض احد العراقيين الى الاعتقال ؟ وما السبب ؟
- هل تم ابتزازكم ؟ ومن الفاعل ؟
- هل حدثت حالة انتحار لعراقي في المهجر ؟

### بعض من الافتراضات ،

- الهجرة ترف عند البعض ، و مسالة حياة او موت عند البعض الاخر .
- يستقر المهاجر حيث يجد من يسانده في المكان .
- مهما طال الاستقرار في الغربية ، يبقى الحنين الى الوطن كامن ويتأجج بين فترة واخرى طبقا لظروف المهاجر و اوضاع البلد الامنية والسياسية والاقتصادية .
- يواجه البعض مشاكل في التأقلم مع البيئة الجديدة ومعايشتها .
- يجد البعض راحة نفسية في البيئة الجديدة و يفكر في الاستقرار بها .
- للوضع الاقتصادي للمهاجر دور كبير في استقراره ونفسيته و سلوكه وفي رغبته في التوطن .
- اخبار الوطن تنعكس على سلوكيات المهاجرين ، فيما بينهم ، ومع المجتمع المضيف .
- الوضع الصحي للمهاجر دور كبير في نفسيته و سلوكه تجاه الاخرين .
- الحصول على مصدر رزق مستقر في الغربية موضوع يشغل فكر المهاجر و يقلق مضجعه .
- الافاق واسعة ، والاحلام كبيرة ولكن الامكانيات محدودة ، والظروف صعبة .... هكذا يرى المهاجر حاله .
- لوباء كورونا اثر كبير على اوضاع المهاجرين ، ومن مختلف جوانب الحياة ، الاقتصادية على وجه التحديد .
- يرى البعض ان الهجرة لم تكن قرارا صائبا ، فلا انتفع منها في الغربية و خسر ما كان لديه في الوطن .
- الافق الضيق والعقلية المتخلفة وراء مشاكل العراقيين في المهجر ، فيما بينهم ، ومع المجتمع المضيف .
- البعض من المهاجرين يتجنب الاحتكاك مع العراقيين تجنباً للمشاكل ، وللحفاظ على الهدوء وراحة البال .
- الانا (المقيتة) وراء عدم تشكل مجتمع Community عراقي محلي في الغربية .
- نقل العديد من المهاجرين مفاهيمهم وسلوكياتهم السابقة الى الغربية متناسين انهم ليسوا في بلدهم وان ما كان لهم في الماضي لا يعود في المهجر .
- للابناء ، والزوجات دور كبير في تشكيل العلاقات بين المهاجرين ، ومع المجتمع المضيف .
- وتشكيل هذه العلاقات و طول مدة الاستقرار مدعاة للتوطن في الغربية .
- اراء ومواقف الاباء لا تعكس بالضرورة اراء ومواقف افراد الاسرة .
- للشباب المهاجرين اراء ومواقف مختلفة عن المسنين .
- تتباين درجة الرغبة في الاستقرار و التوطن طبقا للمستوى التعليمي ، و العمر .
- الحصول على جنسية اخرى هدف مركزي عند البعض .

- هناك من يود تزعم العراقيين في المهجر لاغراض الاستقطاب الاجتماعي وحل المشكلات و تنظيم الحياة في الغربية .
- وجود من يرغب في تسييس تجمعات العراقيين في الغربية .
- المقارنة بين موضع استقرار العراقيين وموقعه في البلدين توحى بالكثير .
- المقارنة بين اوضاع الجالية العراقية مع اوضاع الجالية السورية (على سبيل المثال لا الحصر) تسلط الضوء على الكثير غير المنظور .
- المقارنة بين حضارة المهاجرين مع حضارة الشعب المضيف تدل على اثر الاوضاع السياسية على المجتمعين .
- المقارنة بين اوضاع المهاجرين في مدينتين متباعدتين في المهجر توحى باثر الموقع الجغرافي للمدينتين (شرق وغرب ، شمال وجنوب) على الاوضاع العامة والخاصة .
- كذلك المقارنة بين اوضاع المهاجرين في مدينتين مختلفتين بالحجم السكاني ، وبين منطقتين (قديمة وحديثة) في المدن الكبيرة امر مهم لاستجلاء اوضاع المهاجرين .

### من سيتولى هذه المهمة الوطنية - العلمية ؟

لأن المهمة علمية بدرجة اساسية ، فان الجامعات و المراكز البحثية (التابعة للجامعات او مؤسسات الدولة الاخرى) هي اولى بها . ولانها مهمة كبيرة و غير سهلة وتتطلب جهدا وتستغرق وقتا لذا فانها يمكن ان تكون بحثا مشتركا بين جامعتين : عراقية واخرى من المهجر ، وبصيغة :-

- بحث تفرغ لمدة سنة لباحث عراقي و باشراف استاذ من الجامعة المضيغة ،
- بحث دكتوراه و باشراف مشترك من جامعة عراقية واخرى من البلد المضيف ،
- بحث مشترك بين مراكز بحثية من البلدين ، وبصيغة فريق عمل مشترك ،
- باحث يتقن لغة البلد الثاني و يقضي اشهر الصيف هناك لجمع المعلومات والقيام بالاستبانة و استطلاع اوضاع الجالية العراقية في المهجر .

أملني أنني قد سلطت الضوء على موضوع حيوي يستحق التفصي والدراسة ، حاثا زملائي الجغرافيين وغيرهم للسعي لدراسته او البحث في بعض جوانبه الواسعة ، والله ولي التوفيق ، وهو من وراء القصد .